الشاعر العراقي علي جعفر العلّاق يوقظ وحوش اللغة ليعيد ترويضها

«تفاحة الضوء» مختارات من عشرين ديوانا على مدى نصف قرن

لم تكن تقنية الكتابة وحدها هي ما فصل تجربة الشاعر العراقي علي جعفر العلاق عن أبنـاء جيله ومن سـبقه من قامات شـعرية عراقية مؤثرة اسـتحوذت علىٰ الشـعرية العراقيـة وصبغتهـا بأسـاليبها وتقنياتها وحتىٰ لغتها. لكنّ العلاق امتـاز بنظرتـه غيـر المؤدلجة إلىٰ الحياة وبحياتـه الجدلية والمجربة مع اللغة وباللغة ما وضعه في مكان مختلـف، كما نرى فـي المختارات الشعرية التي صدرت له مؤخرا.

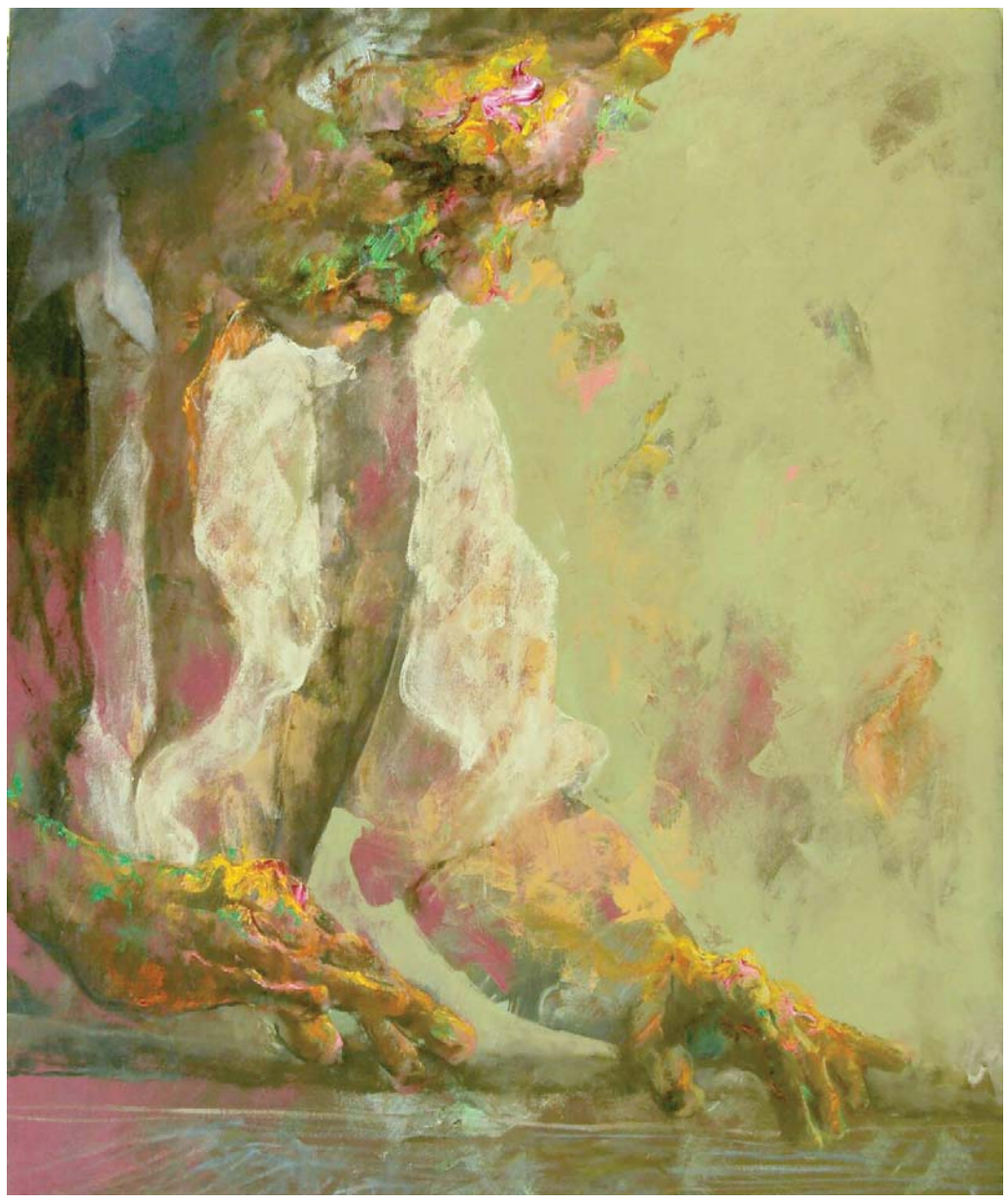

الشاعر نسّاج اللغة (لوحة للفنان تحسين الزيدي)

عمان – كان علي جعفر العلاق شاعرا استثنائيا في مواجهة جيل من الشعراء العراقيـين كانـوا قـد احتكروا سـلطة الشـعر كما لو أنهم وعده الأخير ونذكر منهـم فاضل العـزاوي، سـامي مهدي، حسب الشـيخ جعفر، سـركون بولص، حميد سـعيد، يوسـف الصايغ وسواهم من شعراء العقد الستيني الذين ظنوا أن ثورتهم الشعرية ستأخذ مداها عبر عقود لاحقة من الزمن.

ما لـم يكن يخطر في بالهم أن يخرج فتىٰ شـاعري لا يمت إليهم بصلة ليؤلف تجربتـه بعيـدا عـن بيانهم الشـعري. صحيح أن العـلاق كان وفيا في بداياته لتأثيـرات أدونيـس في تركيـب جملته، غيـر أن تلك التأثيرات كانت تكشـف عن الهضم أكثر مما توحي بالانصياع.

نصوص مختارة

يُقدم الشـاعر العراقـي علي جعفر العـلاق فـي كتـاب "تفاحـة الضـوء"، مجموعـة مختـارة مـن القصائـد والمقطوعات التي تمثّل مجمل مسـيرته الإبداعية التي بدأت في ستينيات القرن العشـرين، وضمَّنهـا ديوانـه الأول "لا شـيء يحدث.. لا أحد يجـيء"، الصادر عـام 1973، وصـولًا إلىٰ قصائـد ديوانه "فراشـات لتبديد الوحشـة" الصادر عام 2021.

في هـذا الكتـاب، يسـتعيد العلّاق أجـواء ومضامـين ومناخـات حوالـي عشـرين ديوانًا من إصداراته السـابقة، منهـا علىٰ سـبيل المثال "وطـن لطيور المـاء"، و"شـجر العائلـة"، و"فاكهـة الماضي"، و"أيّـام آدم"، و"طائـر يتعثّر بالضوء".

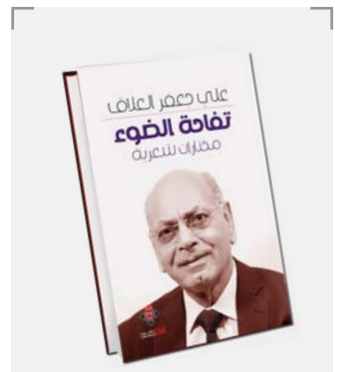

كتاب «تفاحة الضوء» يُقدم مجموعة مختارة من القصائد والمقطوعات التي تمثل مجمل المسيرة الإبداعية لعلي جعفر العلّاق

وجـاءت المختـارات، الصـادرة عن "الآن ناشـرون وموزعـون" فـي الأردن فـي 454 صفحة، وحفلت النصوص فيها بحـالات وجدانية تنقّل خلالهـا العلّاق بين موضوعـات وأقانيم متعددة خاطبَ فيها المرأة والصديـق والوطن والعائلة وتنـاول الأحـداث التي أثـرت تجربته الإنسانية والإبداعية علىٰ مدار ما يناهز النصف قرن من الزمان.

ويرى الناقد والشاعر العراقي فاروق يوسـف في كلمته علىٰ غلاف المختارات أن غنائيـة العلّاق كانت إحدى العلامات الفارقة التي ميزت تجربتـه، مبيّنا أنها "كانت من صُنْع اللغة، وجاءت مسـتلهَمة من عجينتها كما لو أنها مرآتها، أو أنها قُدَّت منها".

ويُضيف مبينًـا ملامح هذه الغنائية "حـرصَ العـلّاق علـىٰ رعايـة النغـم الداخليّ الذي يحْدُث عنـد لقاءِ المفردات أو تصادُمِهـا ببعضهـا، كما لـو أنّ تلك المفـردات لم تلتقِ من قبل، حتىٰ ليشـعر القارئ أنّ الشـاعِر قد حـذف الكثير من الكلمـات التـي وقعتْ خطأً في المسـافة التي تفصلُ بين مفردتين كانتا تتجاذبان عن بُعد، من أجلِ أن يَصْدُر نغمٌ بعينِه هو في حدّ ذاته هدف القصيدة".

وتظهر تلك الغنائية ممتزجة بالصور الفنيـة التـي تغذّي شـوق القـارئ إلىٰ العوالم شـبه السـحرية التي يرسـمها العـلّاق. نقرأ في "القصيـدة المائية" من مجموعة "وطـن لطيور المـاء" الصادرة عـام 1975: "ذاكَ وجهُـك، من أيّمـا أُفُقٍ تنظُريـنَ؟/ أرى غابةً مَلأتْها العصافيرُ:/ تهرُبُ من مطَـرِ الصيفِ، والوردُ فاجأني ليّنـا../ وثيابُكِ، تلك السَماءُ الخفيفةُ،/ تأخذُني لمواسمِها/ (إنّ موسمَكِ الرخوَ/ دشداشـةٌ تخلِطُ الصيفَ بالمـاءِ،/ والماءَ بالصَيْفِ..)".

وتحافظ الصـورة في قصائد العلّاق علىٰ نصاعتها، لكنها تمتـزج بتراكمات السـنين التي تتـرك تأثيرهـا في نفس الشـاعر وفي لغته وموقفه مـن الحياة، فنـراه يخاطـب القارئ في نـصّ يجمع بين الذاتـيّ والعام مـن مجموعة "حتىٰ يفيـض الحصىٰ بالـكلام" الصادرة عام 2013: "صنّاعُ هذا الحنين الممضّ../ بناةُ المجاعاتِ وارفةً../ وارثو لعنةِ الأوّلينْ../ ليس منْ وطنٍ نتعشـقهُ، ليـس من بلدٍ/ ليقول: ادخلوا آمنينْ../ ليس من مطرٍ كي نلمّ لآلئَهُ بالشباكْ../ ومنذ ابتداء الحَنين طريـًا ومنذ انـدلاع الهـلاكْ/ وهتافاتنا تنهشُ الريحَ:/ يا مطرَ اللهِ دعنا نراكْ".

ويظهـر حنـين الشـاعر للعـراق، وطنه ومهـد طفولته، في غيـر مكان من المختـارات، وهـو حنين يعكـس وجهة نظـره التي ترى أن ارتباط المبدع بالمكان هو ارتبـاط حتميّ وقوي وحميم. ويقول فـي قصيـدة "حنـين عابـر للطوائف" من ديوانه "فراشـات لتبديد الوحشـة" الصادر عـام 2021: "إنه الدرويشُ العابرُ بين الثعابين/ المسـكونُ بقصائد الحنين العابر للطوائف/ سيّدُ الأنهارِ التي كفّتْ عـن النحيب/ بعـد أن يبس فيهـا الماءُ وأينعتِ الحجـارةْ../ رأيته أمس:/ وهو يصغي إلىٰ المتنبّي/ حين كان يودّعُ بلادًا لا صديقَ بها".

وإذا كان العـلّاق قـد قـال فـي لقاء صحفـي "لا أنا منفيّ ولا أنا مقيم. وهذه الثيمة تتشـظّىٰ في كل شـعري؛ فالإبداع العراقـي كذلك يتبعثر ويتشـظىٰ والكل فـي ترقّـب للمجهول"، فإن هـذه الحالة من التشظي التي يشـكو منها تظهر في غيـر نص، منها "متعَبًا أدخل البيت" من مجموعة "طائر يتعثر بالضوء" الصادرة عـام 2018: "متعبًا أدخـلُ البيتَ/ أبحثُ دون طائـل عما يعينني علـىٰ النوم../ لا نعـاسَ ينتظرني فـي السـرير../ لا ليلَ يتمشّـىٰ حنونًا خارجَ النافذة../ ليس إلّا رجالٌ يشقّون ذاكرتي/ بمخالبهم".

البشر صناع الشعر

يذكـر فـاروق يوسـف متحدثـا عن العـلاق أنـه ما بـين الآلهة والبشـر كان الشـعر بالنسـبة إليه صنيعا استثنائيا، في طفولته كانت اللغة طريقه إلىٰ العالم. وهو ما تعلمه في سن مبكرة من أبيه الذي كان يردد الشـعر تلقائيا نوعا من الحكمة المجاورة. يومها كان يظن أن الشعر صنيع إلهي غير أنه سرعان ما اكتشف أن البشر هم صناع الشعر وحاملي شعلته.

ويضيف يوسف "ويا لها من صناعة خياليـة، تسـتفيق من خلالهـا وحوش اللغـة ليعيد الشـاعر ترويضها وهو ما كان العـلاق يحرص دائما علىٰ أن يفعله، مـن غير أن يضل طريقـه إلىٰ المعنىٰ. بل إن لغته كانت تلمـع كلما اقترب أكثر من المعاني الإنسانية التي يقيس من خلالها درجة شعريته".

ويرى أن العـلاق انفرد من بين أبناء جيله بخصلتين تلازمتا طوال مسـيرته الشعرية: لغة نقية صارمة تتجلىٰ وتسيل من غيـر أن تنحرف عـن طريقها ومعان تشفّ عن مضامينها بوضوح استثنائي.

غير أن موسيقىٰ اللغة تغلب، وهو ما نجح الشـاعر في تطويعه ذاهبا ببلاغته إلىٰ منطقة شبيهة بتلك المناطق البحرية التي كان الرسام البريطاني تيرنر مولعا برسـمها، حيث لا يخفي الضباب حقيقة أن هناك عاصفة قادمة.

في شـعر علي جعفر العـلاق الكثير من العواصف العاطفية التي تختبئ بين ثنايا لغة، هو خادمها وسيدها في الوقت نفسه.

أما الناقد كمال عبد الرحمن فيرى أنه في تجربة العلاق الشـعرية تمتد خيوط التكهن من حافـة العنونة أو تبهرجاتها أو انطوائياتهـا إلىٰ الغائـص من المتن حيث تشـي هوية النص بإحداثياتها أو تغلق بواباتها السرمدية بوجه محاولات الكشـف هذه من دون منحهـا خيطا من نسج الكتابة قيد التحليل والمقارنة.

وهـذا يؤسـس، وفق رأيه، لحاسـة الوحشـة المدغمـة باليأس، ممـا يعطي العنـوان بصيرة نافذة، لهـا القدرة علىٰ اختـراق الأرض "الحـرام" والأسـلاك الشـائكة وحقـول الألغـام، والتلاعـب بمصائر المتن ومقدراته.

تحيلنـا نصوص العـلاق إلىٰ الإقرار بـأن النص الأدبي أيا كان شـعرا أو نثرا هو كيـان لغوي قائم علـىٰ الانزياح الذي يمنـح المفردات حياة جديـدة من المعاني والدلالات بعيداً عن حدودها الضيقة داخل معاجم اللغة، فلغة الشعر مخالفة للغة أي جنس أدبي آخر، وهي وعاء النص الفني ونسيج تكوينه، وكلما تحصن النص بلغة رصينـة ذات معايير وتقنيـات متطورة، تسامىٰ النص في فضاءات تشكيل مغايرة للراهن الشعري، يؤهله بذلك عمق الدلالات الرؤيوية للغة الجديدة.

وبعيداً عن الطاقات التوليدية التي توفر للنص مؤهلات فنية وتقنيات عدة، تبقىٰ اللغـة وحدها القـادرة علىٰ تقرير مصيـر النص إبداعيا، فاللغة داخل نص العلاق قائمة علىٰ الاختـزال والتكثيف، وهـي أكثر قدرة علىٰ البث الشـعري في إطـار بنية القصيـدة الجديـدة، واللغة الشـعرية هي لغة المجاز، وهي مجموعة مـن المجـازات والاسـتعارات البلاغية، وباختصار هي لغة منزاحة.

ويُذكـر أن العلّاق وُلد عام 1945، وهو حاصل علىٰ الدكتوراة من جامعة إكستر فـي بريطانيـا عـام 1983، عمل أسـتاذًا للأدب والنقد فـي جامعة صنعاء، ويُقيم فـي دولة الإمارات العربيـة المتحدة، وله إضافـة إلىٰ إصداراته في مجال الشـعر مجموعة كبيرة من الكتب النقدية، بدأها بـ"مملكة الغجر" (1981)، ودماء القصيدة الحديثة (1988)، وصـولًا إلىٰ "في مديح النصـوص" (2019)، و"المعنـىٰ المراوغ" (2020).

ميمون غازي شاعر يفتح قصيدته للمسرح ويراهن على الزجل

تطـوان (المغـرب) – اسـتضافت دار الشـعر فـي تطـوان الشـاعر والزجال المغربـي المقيم في فرنسـا ميمون غازي، ضمـن فقرة "شـاعر في المهجـر"، التي تقيمها الدار خلال فصل الصيف.

وكانت الدورة الأولىٰ قد اسـتضافت الشـاعر طه عدنـان، بينما اسـتضافت الدورة الثانية الشـاعر والروائي العالمي الطاهر بنجلون.

وقـدم رئيس بيت الشـعر في المغرب الشـاعر مراد القادري هذا اللقاء انطلاقا مـن "رباعيـات الغـازي"، وهـي أربعة دواوين شـعرية زجلية تؤشـر، حسـب رأيـه، علىٰ صوت شـعري مـدرك للعبة الكتابـة بالعاميـة المغربيـة ورهاناتها الفنيـة والجماليـة، بعيـدا عـن موجة الاستسـهال التي طغت عليها في الآونة الأخيـرة، وأثمـرت الكثير من الشـعراء والقليل من الشعر.

ويـرى القـادري أن تجربة الشـاعر ميمـون غازي إنما هـي "تجربة خاصة، يختلـف عالمها كليـا عن عوالم شـعراء العاميـة مـن مجايليـه أو مـن الذيـن سبقوه".

ويضيـف "ليسـت الكتابـة عنـده استعادة، بل إبادة لما سبق وإعادة كتابة لما ترسـب في قعره الشـعري والحياتي، مسـتثمرا فـي ذلـك ثقافته وممارسـته المسـرحية التي ترفد قصيدتـه بتقنيات يسـتوردها مـن أب الفنـون، كالحـوار الداخلـي والخارجـي والحـوار المتعدد واعتمـاد المؤثـرات الصوتيـة والعناية برسم المناظر والسـينوغرافيا... وهو ما أهـل تجربته لأن تحتل مكانة خاصة بين تجارب شعراء القصيدة الزجلية المغربية الحديثة".

اللحظة الثانية مـن هذا اللقاء جرت في شكل جلسة حوارية بين مراد القادري وميمون غازي، والتي انطلقت من وضع الشـاعر الزجـال المغربـي فـي الفضاء المهجري.

هنـا، حيث اسـتحضر ضيف اللقاء الأدوار التي اضطلع بها شـعراء المهجر فـي تحديث القصيـدة العربيـة، منذ ما يزيد عن قرن من الزمن الشعري العربي.

ويرى ميمون غازي أن شعراء المهجر العربـي سـاهموا فـي إثراء الشـعرية العربية لما انتقلـوا للعيش في فضاءات ثقافية وحضارية أرحب، حيث كان للبيئة الجديـدة تأثير علىٰ تجربتهم، وقد نقلوا هذه التجربة إلىٰ القصيدة العربية.

وجوابا علىٰ السؤال الثاني، المرتبط بوضع الشـاعر فـي الظرفيـة الوبائية الحالية، كما تجتازها الإنسـانية اليوم، يرى غـازي أن الكوفيد تجربة إنسـانية استثنائية عاشها العالم، ولم يكن له علم بها فيما سبق.

ويضيـف "هـي لحظـة مفاجئـة، وضعتنا في عزلة غير مسبوقة. لكن هذه العزلة سـوف تدفعنا إلىٰ مساءلة ذواتنا وتجاربنا، وتأمل مصيرنا المشـترك علىٰ هـذه الأرض. بقـدر مـا جعلتنـا العزلة ننصرف إلىٰ القـراءة أكثر، وإلىٰ الكتابة بشكل أعمق وأصدق".

ويتحـدث عـن انصرافـه فـي أيام الحجـر الصحـي إلـىٰ جمـع عـدد من القصـص التي كتبها علـىٰ مدى مراحل متفرقة، وأصدرها في مجموعة قصصية بعنوان "البرتقالـة الصدئة"، وهي تأتي في صيغة سـيرة قصصية فـي جزأين، الأول عـن مرحلة الطفولـة، والثاني عن مرحلة الشباب.

كمـا يتحـدث غـازي عـن إطـلاق برنامج "ديريكـت" علىٰ مواقع التواصل الاجتماعـي، والذي حاور فيـه عددا من أصدقائـه المبدعـين، فـي زمـن الحجر الصحي.

أخيرا، وعـن حضور المسـرحي في التجربة الشـعرية لميمون غازي، يشـهد الشـاعر المغربـي المقيم في فرنسـا أنه إنما بـدأ الكتابة الشـعرية متأخرا، وأن التجربة الإبداعية الأولىٰ بدأت مسرحيا، من خلال المسـرح المدرسي، قبل الانتقال إلىٰ دار الشـباب للاشـتغال مع جمعية "أنـوار بـركان للمسـرح والموسـيقىٰ"، حيث قطع شوطا كبيرا مع هذه الجمعية كممثل ثم مؤلـف ومخرج، إلىٰ أن أصبح رئيسـا لهذه الفرقـة ومديرهـا إخراجا وتأليفا وكتابة ركحية.

صوت شعري استفاد من المسرح وأدرك أسرار الكتابة بالعامية المغربية ورهاناتها الفنية والجمالية بعيدا عن موجة الاستسهال

ويقر غـازي بأن التجربة المسـرحية هي جوهـر تجربته الإبداعية، وهي التي قادته إلىٰ كتابة القصيدة الزجلية، حيث بـدأ بكتابة أغاني النصوص المسـرحية التـي ألفهـا... فلما سـافر إلىٰ فرنسـا، وافتقـد متعة المسـرح بما هو ممارسـة جماعية، عاد إلىٰ ذاته وإلىٰ كتابتها عبر الكتابة الشعرية الزجلية.

أما اللحظة الثالثة والأخيرة من اللقاء فجاءت في صيغة قراءات شـعرية صدح فيها ميمون غـازي بنماذج من نصوصه الشـعرية مـن علـىٰ منبـر دار الشـعر بتطوان، وهي نمـاذج تقربنا من تجربته الشعرية المهجرية المتعددة والمتفردة.

ويذكر أن الشاعر ميمون الغازي (من مواليد مدينة وجدة)، وهو رئيس جمعية المغاربـة بفرنسـا "فرع نيـس". صاحب منجز زجلي لفت الانتباه نذكر من أعماله دواويـن "خيط مـن شـتاء"، "مايمكنش نكـون أنـا"، "علاش أنـا ماشـي هو"، "بلاش"، ورغم إقامته في فرنسـا، فقد ظل ينسـج لخيوط "هويته" الإبداعية ميسما خاصـا، جعله أحد الأصوات الأكثر تميزا اليوم.

كمـا للشـاعر مؤلفات أخـرى خارج الشـعر مـن بينهـا "حكايات سـاخرة" موسومة بـ"البرتقال الأخضر" إلىٰ جانب عـدة نصـوص درامية قدمـت وعرضت جميعها علىٰ خشبات المسرح.

شاعر كرس تجربته للزجل